البِدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ

تَارِيْخُ الإِنْسَانِيَّةِ بَعِيْدًا عَنِ الإِسْرَائِيْلِيَّاتِ وَالأَسَاطِيْرِ

مَنْهَجُ ابْنِ كَثِيْرٍ فِي «البِدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ» اعْتَمَدَ عَلَى التَّلْخِيْصِ وَالنَّقْلِ بِالمَعْنَى فِي سِيَاقٍ وَاحِدٍ مُتَمَاسِكٍ، وَيُعَدُّ كِتَابُ «البِدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ» مِنْ أَهَمِّ وَأَضْخَمِ الأَعْمَالِ المَوْسُوْعِيَّةِ التَّارِيْخِيَّةِ، لِلإِمَامِ الحَافِظِ العَلَّامَةِ ابْنِ كَثِيْرٍ إِسْمَاعِيْلَ بْنِ عُمَرَ الدِّمَشْقِيِّ المتوفَّى سَنَةَ 774هـ.

يَسْتَعْرِضُ ابْنُ كَثِيْرٍ فِي هَذَا الكِتَابِ -الذِي يَتَكَوَّنُ مِنْ عِدَّةِ أَجْزَاءٍ- تَارِيْخَ الإِنْسَانِيَّةِ كَامِلًا بَدْءًا مِنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالملائِكَةِ وَمُرُوْرًا بِخَلْقِ آدَمَ، ثُمَّ يَتَطَرَّقُ إِلَى قَصَصِ الأَنْبِيَاءِ مُخْتَصَرًا، ثُمَّ التَّفْصِيْلِ فِي الأَحْدَاثِ التَّارِيْخِيَّةِ مُنْذُ مَبْعَثِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى سَنَةِ 767 هـ بِطَرِيْقَةِ التَّبْوِيْبِ عَلَى السَّنَوَاتِ.

وَقَدْ خَصَّصَ ابْنُ كَثِيْرٍ الجُزْءَ الأَخِيْرَ مِنَ الكِتَابِ لِعَلَامَاتِ السَّاعَةِ وَفَتْرَةٍ آخِرِ الزَّمَانِ وَمَا يَسْتَتْبِعُهُ مِنْ قِيَامِ السَّاعَةِ، ثُمَّ البَعْثِ وَالحِسَابِ وَالجَنَّةِ وَالنَّارِ.

وَعَنِ الكِتَابِ يَقُوْلُ ابْنُ كَثِيْرٍ: «... فَهَذَا كِتَابٌ أَذْكُرُ فِيْهِ بِعَوْنِ اللهِ وَحُسْنِ تَوْفِيْقِهِ مَا يَسَّرَهُ اللهُ تَعَالَى بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ مِنْ ذِكْرِ مَبْدَأِ المَخْلُوْقَاتِ؛ مِنْ خَلْقِ العَرْشِ وَالكُرْسِيِّ وَالسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِيْنَ، وَقَصَصِ النَّبِيِّيْنَ، حَتَّى تَنْتَهِيَ النُّبُوَّةُ إِلَى أَيَّامِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ. ثُمَّ نَذْكُرُ مَا بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى زَمَانِنَا، وَنَذْكُرُ الفِتَنَ وَالمَلَاحِمَ وَأَشْرَاطَ السَّاعَةِ، ثُمَّ البَعْثَ وَالنُّشُوْرَ وَأَهْوَالَ القِيَامَةِ، وَمَا وَرَدَ فِي ذَلِكَ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالآثَارِ وَالأَخْبَارِ المَنْقُوْلَةِ المَعْقُوْلَةِ عِنْدَ العُلَمَاءِ وَوَرَثَةِ الأَنْبِيَاءِ...».

وَقَدْ دَرَجَ فِي تَأْرِيْخِهِ لِكُلِّ عَامٍ عَلَى أَنْ يَقُوْلَ: «ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةُ...»، ثُمَّ يَسْرُدُ الأَحْدَاثَ التَّارِيْخِيَّةَ فِيْهَا، ثُمَّ يَذْكُرُ أَبْرَزَ مَنْ تُوُفُّوْا فِي هَذِهِ السَّنَةِ. أَمَّا جُزْءُ النِّهَايَةِ فَفِيْهِ عَلَامَاتُ السَّاعَةِ إِلَى يَوْمِ الحِسَابِ بِالتَّفْصِيْلِ.

جَدِيْرٌ بِالذِّكْرِ أَنَّ ابْنَ كَثِيْرٍ عَالِمٌ مُسْلِمٌ، وَفَقِيْهٌ، وَمُفْتٍ، وَمُحَدِّثٌ، وَحَافِظٌ، وَمُفَسِّرٌ، وَمُؤَرِّخٌ، وَعَالِمٌ بِالرِّجَالِ، وَمُشَارِكٌ فِي اللُّغَةِ، وَلَهُ نَظْمٌ.

وَقَدْ غَلَبَ عَلَى ابْنِ كَثِيْرٍ مُنْذُ أَوَّلِ كِتَابِهِ إِلَى نِهَايَةِ السِّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ أَثَرُ الحَدِيْثِ وَأُسْلُوْبُهُ وَمَنْهَجُهُ، فَالْتَزَمَ الرِّوَايَةَ بِالأَسَانِيْدِ وَنَقْدَهَا، أَوْ بَيَانَ دَرَجَةِ الحَدِيْثِ دُوْنَ نَقْدِ السَّنَدِ لِلحُكْمِ عَلَى الأَحَادِيْثِ وَالرِّوَايَاتِ عَلَى طَرِيْقَةِ عُلَمَاءِ عَصْرِهِ، وَقَامَ بِمَجْهُوْدٍ كَبِيْرٍ وَسَعْيٍ مَشْكُوْرٍ فِي تَحْقِيْقِ الأَخْبَارِ وَتَمْحِيْصِ الرِّوَايَاتِ وَنَقْدِ الأَسَانِيْدِ وَفَحْصِ بَعْضِ المُتُوْنِ وَكَشْفِ زَيْفِ الغَرَائِبِ وَالمَنَاكِيْرِ.

وَلَكِنَّ الاعْتِمَادَ الأَوَّلَ عَلَى سَلَامَةِ السَّنَدِ فِي نَقْدِ الأَحَادِيْثِ وَالأَخْبَارِ، وَهُوَ الغَالِبُ عَلَيْهِ كَوْنَهُ مُحَدِّثًا حَافِظًا سَمَحَ أَنْ يَدْخُلَ فِي تَارِيْخِهِ بَعْضُ الرِّوَايَاتِ الضَّعِيْفَةِ وَالأَخْبَارِ الوَاهِيَةِ، وَخَاصَّةً فِي أَخْبَارِ الماضِيْنَ، وَحَوَادِثِ الجَاهِلِيَّةِ وَهَوَاتِفِ الجَانِّ وَمَا جَاءَ فِي دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ وَمِنْ بَعْضِ الأَخْبَارِ التِي تُنَاقِضُ العَقْلَ وَالسُّنَنَ الكَوْنِيَّةَ وَلَيْسَتْ لَهَا قِيْمَةٌ تَارِيْخِيَّةٌ أَوْ سَنَدٌ عِلْمِيٌّ أَوِ اعْتِبَارٌ دِيْنِيٌّ فِي الشَّرِيْعَةِ.

وَالحَقِيْقَةُ أَنَّ ابْنَ كَثِيْرٍ كَانَ يَشْعُرُ فِي كَثِيْرٍ مِنَ الأَحْيَانِ أَنَّ مَا يَرْوِيْهِ هُوَ مِنْ هَذَيَانَاتِ المؤَرِّخِيْنَ وَخُرَافَاتِهِمْ، لَكِنَّهُ يَذْكُرُهُ اتِّبَاعًا لِلمؤَرِّخِيْنَ السَّابِقِيْنَ لِلرَّدِّ وَالتَّنْبِيْهِ عَلَيْهِ. وَيُقَدِّمُ ابْنُ كَثِيْرٍ عُذْرَهُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الأَمَاكِنِ قَائِلًا: «لَوْلَا أَنَّهَا مُسَطَّرَةٌ فِي كَثِيْرٍ مِنْ كُتُبِ التَّفْسِيْرِ وَغَيْرِهَا مِنَ التَّوَارِيْخِ وَأَيَّامِ النَّاسِ، لَمَا تَعَرَّضْنَا لِسَقَطَاتِهَا وَرَكَاكَتِهَا وَمُخَالَفَتِهَا لِلمَعْقُوْلِ وَالمَنْقُوْلِ».

وَقَدْ بَذَلَ ابْنُ كَثِيْرٍ جَهْدًا كَبِيْرًا فِي إِبْعَادِ الإِسْرَائِيْلِيَّاتِ وَالمَوْضُوْعَاتِ وَالأَسَاطِيْرِ الخُرَافِيَّةِ وَالقَصَصِ الشَّعْبِيِّ القَدِيْمِ التِي دَخَلَتْ عِنْدَ المؤَرِّخِيْنَ المُسْلِمِيْنَ فِي قِسْمِ المُبْتَدَأِ وَقَصَصِ الأَنْبِيَاءِ مِنْ تَارِيْخِهِ. وَقَدْ نَجَحَ فِي ذَلِكَ إِلَى أَبْعَدِ الحُدُوْدِ حِيْنَ عَرَضَ المَادَّةَ التَّارِيْخِيَّةَ القَدِيْمَةَ عَنْ عُصُوْرِ مَا قَبْلَ الإِسْلَامِ عَلَى القُرْآنِ وَالحَدِيْثِ وَحَقَّقَهَا، فَأَقَرَّ مَا وَجَدَ مِنْهَا مُوَافِقًا فِي نَظَرِ العِلْمِ الإِسْلَامِيِّ وَرَدَّ مَا رَآهُ مُخَالِفًا، مُبَيِّنًا مَا فِيْهِ مِنْ ضَعْفٍ أَوْ نَكَارَةٍ أَوْ غَرَابَةٍ أَوْ شُذُوْذٍ.